تقرير

شوقي عشقوتي
lionbars@hotmail.com

الإتحاد الأوروبي نجح في الإمتحان الصعب حرب أوكرانيا تعيد الحياة إلى الحلف الأطلسي

عام مر على الحرب التي غيرت وجه العالم. بدلت الخرائط والاولويات والتحالفات. الى متى هذه الحرب؟ الى اين؟ وما احتمالات اتساع دائرتها؟ وما الذي يمكن ان يضع حدا لها قبل ان تخرج عن السيطرة التي تبدو حتى الان احدى سماتها الاساسية؟

هذه الاسئلة وغيرها كثيرة، ما زالت من غير اجوبة شافية بعد سنة على اندلاع اول مواجهة عسكرية مفتوحة في قلب القارة الاوروبية بين قوة نووية كبرى وتحالف غربي واسع تحت عباءة الحلف الاطلسي، في الوقت الذي يتلبد فيه المشهد الاقتصادي العالمي بغيوم سوداء كثيفة تنذر بازمات عاصفة على اكثر من صعيد.

المواجهة الكبرى التي اشتعلت نيرانها منذ لحظة توغل الدبابات الروسية في اراضي اوكرانيا قبل عام، حملت عنوانا بارزا وعريضا حول اضطرار موسكو الى الدفاع عن مصالحها وامنها الاستراتيجي في مواجهة التحديات التي طرحها تمدد حلف شمال الاطلسي على مقربة من اراضي روسيا، مع تفاقم المخاوف من تحول اوكرانيا الى رأس حربة لتطويق روسيا، عسكريا وامنيا.

هذا العنوان سيطر على تبريرات قرار الحرب، مع رزمة من الاهداف المباشرة، بينها الدفاع عن اراضي روسيا التاريخية وانقاذ سكان دونباس من سيطرة النازيين الجدد. لكن، مع مرور عام على المواجهة التي سرعان ما تحولت بحسب التعبير الروسي الى حرب عالمية تستهدف وجود روسيا، يبدو المشهد اكثر غموضا والتباسا على صعيد الوضع الاقليمي، وفي اطار البحث الدائم عن حلول لمتطلبات روسيا على صعيد ضمان الامن الاستراتيجي.

مع هذا التعثر، عكس تركيز الجهد العسكري لحلف شمال الاطلسي على مقربة من حدود روسيا، ونشر قوات بشكل غير مسبوق في اوروبا الشرقية، فضلا عن مسار انضمام فنلندا والسويد الى الحلف مما يعني تحويل بحر البلطيق الى بحيرة اطلسية لجهة السيطرة والانتشار، وتطويق الحضور الروسي الذي يغدو اكثر ضعفا فيها. ولا يخفى ان انضمام فنلندا والسويد المحتمل الى الناتو يشكل اضافة مهمة للغاية له، فكل منهما تملك قوات عسكرية محترفة، والقدرة على حشد

اكثر من مليون جندي احتياط خلال ايام قليلة، اذ يفرض البلدان نظام الخدمة العسكرية الالزامية، ويمتلكان صناعات عسكرية متقدمة، ويوفران قدرات دفاعية قيمة، بالاضافة الى موقعهما الاستراتيجي. وتملك فنلندا حدودا برية مع روسيا في الشمال الغربي على امتداد نحو 1300 كلم. كما انهما تزيدان من مساحة سيطرة الناتو البحرية في بحر البلطيق.

بعد مرور عام على بداية الحرب، يمكن وضع اقتراب الوضع من توسيع المواجهة لتتحول الى حرب اوسع بمشاركة اطراف من حلف شمال الاطلسي بين النتائج الاولى للعمليات القتالية خلال العام. وتوعدت موسكو بتدمير الاسلحة والمعدات القتالية التي يقدمها الحلف الغربي الى كييف، ورأت ان توسيع حجم الامدادات العسكرية، وتحولها النوعي لتصل الى طرازات من الاسلحة والمعدات الثقيلة بينها دبابات من طرازات مختلفة، يفتحان على انخراط غربي مباشر في العمليات القتالية، مما يزيد من مخاطر اندلاع تلك المواجهة. واليوم يبدو حلف الناتو النقطة المحورية التي تدور حولها الدول الداعمة لاوكرانيا، وتنسق عبرها المساعدات العسكرية، وبات ايضا مرجعا امنيا للدول التي تشعر بتهديد من روسيا بعد غزوها اوكرانيا. وعوضا عن الحديث عن ان الناتو بات ميتا ولم يعد يؤدي دوره، يبدو التحالف الامني على الطريق للتوسع مرة اخرى، فهل اعادت الحرب في اوكرانيا فعلا الحياة الى الناتو، ام ان يقظته هذه مرحلية وستمر بعد انتهاء الحرب؟

هذا الدور المحوري الذي يلعبه الناتو اليوم يعود بسبب اساسي الى موقف الولايات المتحدة التي تقود جهود دعم اوكرانيا منذ البداية. ويعي الاوروبيون ذلك جيدا، واكثر من ذلك يعرفون ان وجود الرئيس جو بايدن تحديدا في البيت الابيض، هو سبب هذا الزخم المتجدد للحلف. وقد اظهرت الحرب في اوكرانيا فعلا مدى اعتماد الناتو على الولايات المتحدة. الحرب في اوكرانيا اظهرت ان التحالف حاجة الى الاميركيين كي يكون فعالا ولتوحيد الصفوف داخل الحلف. الحرب الاوكرانية لم تغير الناتو، بل اعادته الى مهمته الاصلية، وهي الحماية الجماعية للدول الاعضاء ليس ضد الاتحاد السوفياتي، بل خليفته روسيا. فطوال 40 عاما خلال الحرب الباردة كانت مهمة الناتو هي نفسها، اوروبا ضد الاتحاد السوفياتي، وهذا توقف بعد سقوط جدار برلين عام 1990، وبعد ذلك كان على الناتو ان يجد دورا جديدا لنفسه، في البوسنة وكوسوفو وافغانستان والعراق. كل هذه الامور التي لا علاقة لها بالدفاع المشترك. وبالفعل، فان الدور المستعاد للناتو جعله ايضا يسير على خطى التوسع مرة جديدة، رغم ما قد يحمل ذلك من مخاطر، فروسيا تقول ان توسع الناتو على حدودها هو ما دفعها لغزو اوكرانيا، بعد ان شعرت بالتهديد من الحلف. وبعيد بدء الحرب في اوكرانيا تقدمت كل من السويد وفنلندا بطلب عضوية للحلف، لتنهي الدولتان عقودا من عدم الانحياز. قادة الناتو يعتبرون ان الكلام بأن توسيع الناتو كان سببا في الحرب هو "بروباغندا روسية". الدول تطلب الانضمام بعد شعورها بالتهديد من قبل روسيا. وروسيا هي التي تتحمل بشكل او بآخر عملية التوسيع، لذا الامر ليس توسعا من الغرب الى الشرق، على العكس، الشرق يريد ان ينضم للغرب. ورغم التمايزات التي يمكن رصدها بين بلدان الاتحاد الـ27، فان الاوروبيين يعتبرون انهم حافظوا بقوة على وحدتهم، وانهم حتى اليوم نجحوا بالتعاون مع الولايات المتحدة الاميركية والحلف الاطلسي في افشال الخطط الروسية. يضاف الى ذلك، ان الاوروبيين شغلوا لاول مرة في تاريخ الاتحاد ما يسمى الية السلام الاوروبية التي مكنت من تمويل جزء رئيسي من الجهد العسكري الاوكراني. وتبين الارقام المتوافرة ان الاوروبيين وفروا حتى اليوم لاوكرانيا، وفي القطاعات المدنية والعسكرية والانسانية كافة ما مجموعه 67 مليار يورو، من بينها 22 مليار يورو مخصصة للدعم العسكري. اما التحول الاكبر الذي تشدد عليه المصادر الاوروبية، فانه يتناول تخلي الاوروبيين التدريجي عن كل التحفظات التي كانت لديهم لجهة تزويد اوكرانيا بانواع محددة من السلاح مخافة اثارة موسكو، واعتبارها ان الاوروبيين اصبحوا طرفا في الحرب. والموقف الاوروبي الجماعي يقول بمواصلة دعم اوكرانيا لاستعادة اراضيها وسيادتها، ويعود اليه ان تقرر اذا رغبت في التفاوض ومتى ووفق اي شروط. بيد ان الاوروبيين لا يملكون الورقة الحاسمة الموجودة في واشنطن، الداعم الاكبر لاوكرانيا. من المرجح ان يكون للحرب ثلاث عواقب رئيسية على النظام الدولي، تتمثل اولاها في عودة العالم الى نظام من كتلتين يذكرنا بالحرب الباردة، بحيث تكون الديمقراطيات الليبرالية في العالم متماسكة بعضها

مع بعض بواسطة نظام تحالفي تقوده الولايات المتحدة، مقابل كتلة استبدادية تمتد من اوروبا الشرقية الى غرب المحيط الهادئ، بزعامة روسيا والصين. ومن غير المستبعد ان يمتنع كثيرون عن الانحياز في كل من اميركا اللاتينية وافريقيا والشرق الاوسط وجنوب اسيا وجنوب شرقي اسيا، في ظل تصاعد التوتر بين الكتلتين الرئيسيتين. وهذا النمط من عدم الانحياز يشير الى ان العالم يتجه نحو تعددية قطبية، وليس الى قطبية ثنائية على غرار تلك التي سادت خلال الحرب الباردة. اما ثانية العواقب فتتمثل في عودة التنافس العسكري بين القوى العظمى بعدما بقي معلقا منذ نهاية الحرب الباردة، والغزو الروسي اعاد اشعال المنافسة العلنية بين القوى العظمى، اذ يعاد تقسيم اوروبا، فيما يتصاعد التوتر بين الصين والولايات المتحدة، وبخاصة حول تايوان. وذلك سيدفع الولايات المتحدة الى تعزيز وجودها المتقدم في كل من اوروبا واسيا في المستقبل المنظور. لا يمكن التكهن بالمدى الذي يمكن ان تذهب اليه الطموحات الروسية، في ظل اصرار الغرب على مواصلة دعم اوكرانيا بالسلاح، وفرض العقوبات المرهقة ضد موسكو، لكن هذا المدخل يفتح على ثلاثة سيناريوهات ينتظر خبراء ان تشكل اساس التطورات المقبلة:

- اتساع رقعة المعارك ودخول اطراف جدد في الصراع بينهم مولدافيا وربما جورجيا لاحقا، بالاضافة الى بعض بلدان حلف الاطلسي خصوصا بولندا ورومانيا، مع المحافظة على مساحة محددة لهذا الانخراط ونوعيته، بما يضمن عدم استخدام اسلحة غير تقليدية، ويقلل من فرص تحول المعركة الى حرب شاملة مع حلف شمال الاطلسي.
- استمرار حرب الاستنزاف على رقعة محددة من ساحة المعارك، وهذا السيناريو يتوقع ان تنحصر العمليات القتالية طويلة الامد في مناوشات مستمرة وعمليات كر وفر في منطقة دونباس، وعلى طول الضفة الشرقية لنهر دنيبرو.
- الانزلاق نحو مواجهة شاملة قد يسفر عن استخدام اسلحة غير تقليدية، مثل استخدام قنابل تكتيكية لاخضاع مساحات معينة. هذا السيناريو يرى عدد وازن من الخبراء انه ما زال الاكثر استبعادا، لان كل الاطراف المنخرطة في الازمة تحاول تجنبه رغم كل اجواء التأجيج المحيطة الحالية.